خيري

الشاعر والفنان

حليم متري

أدركهُ الموت منذ أسابيع في لبنان رحمة الله عليه

لم يستطع أن يغالب الموت وان يظفر من الحياة بالشفاء . بل استبطأهُ الموت حيناً ، يوم اعتزم الرحيل الى لبنان ، فترك مصر متلاً ليأخذ حظه من الصحة والنشاط . فاذا استقرَّ هناك عاد اليه هذا الشبح المخيف متقدماً نحوه رويداً رويداً ، متحيّناً فرصة كهذه الفرص التي ينتهزها الماكرون . فاذا ألحت عليه العلة وضعف الامل في الشفاء ، فقد جثم الموت على فريسته وعاد كأنهُ لم يشعر أحداً بسوءٍ ولم يختطف من المصريين شاعر الفرنسية الموهوب وفنان الموسيقى البارع الذي عرفتهُ فرنسا ومجدتهُ قبل أن يذيع اسمهُ في وادي النيل

اردت أن أدعوهُ كما أحب وكما كان يفرض اسمهُ على أصحابه من الادباء والفنانين فرضاً . كان رحمهُ الله قوي النفس والشعور ذكي القلب في عينيه هذا البريق الذي يدل على عبقرية الفنان . اذا تأملتهُ تصورت شاباً زاخراً بالحياة مليئاً بالقوة . واذا ما جلست اليه لمحت وجهاً يفيض احساساً بالوجود واستقصاء لمكنوناته وانك لتحكم عليه للنظرة الاولى بانهُ شاعر او فنان وانهُ لابدَّ وان يمت للأدب بصلة . يتحدث اليك في رفق ولين . تحس حديثه عذباً حلواً فيه هذه الجوانب التي تحبب للسامع الاسترسال والتعمق والرقة والتي كانت تتيح للشاعر ألواناً متباينة من الآراء والخواطر

نشأ الشاعر خيري في جوٍّ اريستوقراطي من هذه الاجواء المشبعة بالتقاليد فظلَّ طيلة حياته محافظاً شديد الحرص على التقاليد الاجتماعية . على انهُ في نزعاته العامة كان يكره هذا النوع من المحافظة . وكان يمج هذا الضرب من الاريستوقراطية . كانت هذه المحافظة تنتسب اليه وينشأ هو ألاَّ ينتسب اليها . كان اذن ديموقراطياً بل حرَّاً الى أقصى حدود الحرية . لم تحن الاريستوقراطية

على حياته فتفسدها . وانما كانت الارستوقراطية عوناً للشاعر على هذه العزلة التي يجنح اليها بعض الشعراء والأدباء

نشأ خيري إذاً في هذا الجو فأرسله ذووه في حداثته الى المدارس الفرنسية فشب وهو مولع باللغة الفرنسية والأدب الفرنسي . وكان يقبل الى هذه المجالس الأدبية التي كانت تعقد في دار أبيه . وهناك تعرّف بالشاعر المصري المجيد « اسمعيل صبري » الذي كان يتبادل واياه أحاديث الأدب والشعر . ثم تشوّق الى معرفة أديب الفرنسية المصري وشاعرها الامير « حيدر فاضل » وكثيراً ما دعاه الأمير الى قصره ، فتوطدت بينهما هذه المعرفة التي قامت على الأدب . وهكذا بدأ شاعرنا — خيري — في شبابه الأول يدرس شؤون الأدب ويستوعب حياة الشعراء والأعلام ويغشى المجتمعات الأدبية التي تضم طوائف مختلفة من الناس ليشهدوا كل ما يُطرق فيها من موضوعات الأدب والفن . حتى اذا قدّر لهُ أن يسافر الى باريس قبل الحرب تعرّف بجمهرة الأدباء والشعراء والصحفيين وعاش هناك فترة طويلة نشر في أثنائها كثيراً من فتات يراعته وانتاج عبقريته شعراً فرنسيًّا عليه هذه المسحة الشرقية الوضاءة بل هذا الطابع المصري القوي . وكان يختلف الى صالونات الأدب والشعر في باريس ينهض بمقارعة أنداده من الشعراء والكتّاب حتى تبينوا هذا الأسلوب « الكلاسيكي » في شعره . وكانت لهُ جماعة كبيرة في يوم من الأيام تتحدث عنهُ وتشيد بأدبه وكانوا يعنون ببحث خواص شعره وتحديد أسلوبه . فمنهم من كان ينقده ومنهم من كان يعجب به . ثم عاد الى مصر بعد ان أصدرت لهُ بعض دور النشر طائفة من دواوينه . فتقبلها الأوساط الأدبية بالنقد والتقريظ . على أن « خيري » كان من هؤلاء الشعراء الذين تتخطى شاعريتهم أفق مداركهم . فتراهم يصيبون من المعاني الرفيعة ما يقصر عنها جهد الشعراء المفكرين . كان لا يتعمل الشعر ولا يصنعهُ ولكنهُ يفيضّ من الشعر الفرنسي يُفاض عليه في أسلوب جذاب وفكر موهوب . ولقد كانت تتلج الصور الرائعة في نفسه فيخرجها في المعنى العالي واللفظ المختار . فما كانت لهُ اللغة الفرنسية بالشيء الشامس . ولقد ظفر الشعر من « خيري » بهذه المناحي النفسية العميقة التي يحملها عقل الشاعر ونفسه معاً والتي يعرض فيها الشاعر انحاء من التفكير العميق في أبلغ صورة للعاطفة المتقدة . لم يفهم الشاعر من شعره الا هذا التوافق المعنوي في امتزاج عقله بعاطفته . لم ينكر العقل ولم ينكر العاطفة وانما كان العقل في شعره قويًّا فذ مُحض . وكانت العاطفة في شعره قوية جياشة فلم تستدق كما استدق العقل على القارىء وانما استقلت العاطفة بالوضوح .
ولقد كان هذا وحده حديث النقاد اذ لم يتفهموا معنى لهذا الغموض ، ولم يتعرفوا وجوهه وانما هو بعض ما استوى للشاعر من قوة في الاخراج وابتداع في المعاني . وكثيراً ما تقدم اليه أقطاب من أدباء الفرنسية يسألونهُ فيمّ هذا النوع من الابهام فكان يُرسل فيهم من بلاغته

ووفرة محصوله ما دعاهم الى الاعتراف بهذا الانتاج الشعري المدوي وما يضمره من بلاغة رفيعة. ولقد انعقدت بلاغة « خيري » بتقصي ما أوثر في شعره من نسج متلاحم ولفظ منتقى. وجماع القول في هذه الناحية أن شعره يتميز بالتجويد اللفظي يحمّله العقل أخيلة رائعة عميقة المعنى وهذه الشاعرية المصرية الصميمة حفلت بضروب من شدة الفطنة وصفاء الذهن ورهافة الحس ودقة الذوق

ولقد غلب على شعره هذه الناحية الحزينة الصامتة التي يجلوها الظلام ويكنسها الصباح . . . ولعلك تستطيع ان تلمس هذا الحزن اذا قرأت قطعاً أو أبياتاً من قطع في ديوانه . ولأدلك على روعة هذه القطعة التي يقف فيها عند القبور فيطيل الوقوف والتي أسماها « صفصافتي » حيث يستجمع من طبيعة هذه الشجرة درساً بليغاً في فلسفة الأبدية وجلال الفناء . . . وفيها يقول « أما أنت أيتها الصفصافة الساكنة الكئيبة . المنزلة البعيدة عن مباهج الحياة المنزوية في ركن الوحدة . فلا يطرق اذنيك سوى تنهدات وأنات اولئك الاحياء الباقين . وزفراتهم المؤلمة المتساقطة من اعماق نفوسهم المتفجرة وهذا النشيد الميت الذي سيودي بك يحيي بحزن اغصانك المتحجة الباكية فكأنها بهذا التدلي الابدي تتقبل الآلام المنبعثة من قلوب الاحياء المتفطرة . يا صفصافة دموعنا . يا صديقة متوسدي الثرى قد يكون اعناقك على اجداث الموتى فوق زهور الراحلين . ذات الآكام الثلجية . حناناً منك ورأفة تسيلين تشكي على تلك الارض الغامرة . شآبيب السلوى . وتفيضي عليها حنانك وروحك » . او قطعته الخالدة الطليبة « الانفعالات النفسانية » او قصيدته المتفردة « الأرواح العائدة » التي يقول فيها « أيتها الروح الحارة . يا روح الأم المتحجر عطفاً . السعيد بهذا العطف . ليسهر في بكائه على ابنه العزيز بشعره بالحب الاموي القوي . الذي لن ينتهي الى حد . انك الروح الحب الذي يعذبه أبداً . ذلك العطف الذي تتساقط اوراقه في قلب تقي لا يعتريه ندم ولا وخز ضمير . أجل ان الارواح تمسّنا في جوف الليل الهادىء . ولكن في نهارنا الذي يملأه النسيان الجنوني الكثير الصخب تطاير في أغلب الاحيان أعز ذكرى لها . تطاير الرماد تذروه الرياح . فتعفو آثارها متغلغلة في طيات القدر المختوم » . ولعل هذا الأثر النفسي في شعر « خيري » يرجع الى فقده أمه فكانت صدمة القدر لشعوره باعثاً للألم المضى . ثم ان جمالاً روحيًّا كان فيما مضى يتوج الكائنات قد ذهب الى حيث لا يعود وأحس الشاعر نكراً من الدهر . وتقلباً من الزمن . . . كان عصر الصبا صباحاً عليه الندى لطلاً ونثراً فلما جاء الهجير جف الندى وغاض الصباح » . أليست الطبيعة خيالاً . . . بل أليس الوجود فناء . تمثل الشاعر امه لذة روحية طواها الدهر واصبح نصيبهُ منها الذكرى يودعها اشعاره وخلجات نفسه . وكان يكثر من حديث الحزن والالم . بل كان يتخيل احزان الناس واحزانه ويجد لذة وصبراً في هذا . ولقد يقف عند الشعراء البائسين الذين لم يصيبوا حظاً

نمبری

من لذة أو متعة بقرأ فيهم صفحة من كتاب الحياة الزاخر بالألم والحافل بالرهبة. بل يقرأ فيهم اثر هذا الألم . بل انه ليقرأ في حياتهم هذا المعنى العظيم ألا وهو ان المجد يشيد هيكله على القبر ويرفع ناره من رفات المحول .. ولعلي أرى «خيري» يتحدث بلسان « شلي » الشاعر « علمتنا الاحزان نظم النشيد فأعدنا للناس في نغمات الشعر ما تلقيناه من ضربات الألم والشقاء »

ظل خيري في مصر الى ان وضعت الحرب اوزارها فتركها الى باريس حيث الجمال والادب والموسيقى وهنالك قابل الشاعر بعض اصحابه من الادباء. وهنالك بدأ شيئاً جديداً من هذه الحياة العقلية الممتعة واستأنف نشاطه الادبي فكان لا يفتر عن وضع شعره وكان يؤم الصالونات الادبية التي حرم منها الادب طوال الحرب حيث تعالج فيها قضايا الادب والفلسفة والفن حيناً وشؤون السياسة احياناً. وقد عرفه صالون «ڤالنتين دسان بوا » وصالون «البرنسيس دي نواي » وغيرهما . وقد كانت هذه الصالونات محطاً لرواد الادب والعلم واصحاب الفنون يتقابلون فيه وجوه الرأي ويتباحثون فيما بينهم هذه الابحاث الطويلة المتجة عن حياتهم العقلية والاجتماعية . وكان الادب في عرف طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوّن طوعاً لعقلية الكاتب ومدى ثقافته وشعوره بالحياة . وكان الفن ايضاً عند طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوّن بطبيعة ما وهب الفنان من ذوق واحساس والهام . ولقد كان الجدل ينشأ عن هذه النظرات التي يراها الادباء وعن هذه المناحي من الاستنتاجات والعوامل الفكرية المتباينة التي تتناول حظاً غير قليل من تفكيرهم ووقتهم . ثم يذيع هؤلاء الادباء او المفكرون نتائج ابحاثهم في الصحف والمجلات وتنتشر هذه البحوث الضافية هنا وهناك وتزداد الحياة العقلية نشاطاً وانتاجاً. واستمرت الحال على هذا النحو الى ان ظهر في باريس عقب الحرب هيئات ادبية ناشئة يتزعمها طائفة من كتّاب الشباب وبعض زعماء الرأي الادبي كما كان يتزعم الشعر ايضاً بعض قادته من الذين اغرم بهم وبادبهم الشباب وفي طليعة هؤلاء القادة الكاتب الشاعر العظيم « بول ڤاليري »

كان ادب هذا الشباب وضعاً جديداً في الحياة الاجتماعية من حيث هي. وقد قام هذا الوضع على ما تخلف عن الحرب من عسف بالاخلاق والتقاليد. فهم الادب والحياة على انهما شر محض وان الفساد الاجتماعي أخص ما يمتاز به الخُلق . وفهم الادب والحياة على انهما عناء يراد به السخرية . ليس هنالك مثل اعلى كما يقولون لان النقص الخلقي والنفسي يشرفان على كل شيء وسيخرج الناس من هذه الحياة كما دخلوها لا سبيل لهم في اصلاح ولا سبيل لهم في تدبير لانهم قد لا يستطيعون اصلاحاً او تدبيراً . وانما هي الحياة التي تملك الاصلاح والتدبير معاً . فليطمئن الناس اذن الى هذا الفساد الشامل وليتكفوا الحياة على هذا النحو وليتدبروا شؤونهم على هذا الوجه فقد آن للمجتمع ان يعلم بالحقيقة الواقعة في ان اخلاق الجيل السابق وآدابه وسياسته لم

تنتج الا حرباً وبيلة ولم تؤد الا الى شر كبير فما شأننا إذن بالتقاليد والاخلاق ؟

وما شأننا إذن بهذه النظريات الخلقية التي تمثلها في الأشمل تنحوها ونسير عليها . فلندع هذا . !

ولتكن لنا هذه الرغبة الملحة في الاستمتاع بالحياة . فقد وجب على الانسان المفكر أن يسخر من الظروف لان الظروف تسخر منه . وقد وجب على الانسان المفكر ان يتخذ المادة عنواناً لحياته الاجتماعية بل يتخذها سبيلاً لحياته بوجه عام . كان هذا بعض ما غمر أدب الشباب وبعض ما استولى على نفوسهم من شعور . ولعلَّ هذا النوع من المنطق في تفهم الاجتماع كان شديداً غاية الشدة وكان مسرفاً الاسراف كله . كان ثورة فكرية عامة تناولت الادب وتخطته الى شؤون الحياة بوجه عام . لم تكن هذه النزعة في فرنسا فقط انما كانت تجتاح العالم الفكري في أوربا على الاطلاق . ولقد كان الادب الخيالي لساناً من هذه الالسن التي تنطق بهذه النزعة الجديدة . فوضع المؤلفون قصصاً خيالية ان كان قد حوى هذه المناحي العديدة في الرأي ومظاهر التفكير وتطور الاجتماع مما لم تألفه النفس وقد لا يقره العقل على انه حوى جمالاً فنياً رائعاً لا سبيل الى انكاره ولا سبيل الى جحده فقد صوَّر المؤلفون الحياة صوراً غاية في النكر والسخرية . بل كانوا يصوِّرون الحياة صوراً ثائرة على الدين والخلق ترمي الى الالحاد والاباحية . وان قامت على التحليل النفسي كقصص « لينورمان » المؤلف الشاب . ولقد اعتمد الادب المسرحي فيما اعتمد ايضاً على طائفة من الاسرار الخطيرة التي كانت من العوامل الهامة في اثارة الحرب واستمرارها والتي استدل بها بعض الادباء على اخلاق العظماء ممن كانوا يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية للامم والشعوب وكان المسرح يصور للناس ما كان يسود هذه الاخلاق من دسائس ومساوىء اجتماعية منكرة وما كان يجهله الناس عن عظمائهم من مهازل

كانت الحياة استنتاجاً لهذا البعث الجديد من التفكير وكانت الحياة وسيلة صالحة لتطور الحياة العقلية أن خيراً وان شراً . وكانت الحياة مثاراً لبحث النقاد وتهكمهم وكانت الآراء الادبية الحديثة موضوعاً يشغل الناس في حياتهم العامة كما كانت الحرب تشغلهم ايضاً . وقد كانت هذه الحرب التي اساءت الناس في ابنائهم واموالهم شراً لا خير فيه فانها لم تترك قديماً صالحاً ولم تؤد الى جديد ممتع وانما كانت سبباً مباشراً لطفرة في التفكير العقلي والاجتماعي وثورة ما كان أحوج الناس بعدها . واخيراً اتخذت الحياة في ادب الشباب على أنها أسلوب لا بدَّ منهُ في سبيل اللذة والمتعة والاستخفاف بالخلق

ظهر هذا كله في أدب الشباب الذين كتبوا في اعقاب الحرب الكبرى . والذين احتالوا الى نشر آرائهم بصور سريعة خاطفة لم يكن للناس بها عهد مما أدى الى ثورة فكرية في الادب والحياة والاجتماع ، ومما أحدث هذا النضال القوي بين أدباء الجيل القديم وأدباء الشباب . أما الذين

هيمنوا على الحياة الأدبية قبل الحرب فطائفة من أعلام الأدب والشعر وأصحاب الاجتماع ممن يقيسون للحياة والأدب وللاجتماع والفن ألواناً من الرأي مستقرة ثابتة . يفهمون الحرب على أنها ظاهرة طارئة عاجلة لا تؤدي بهم الى تغير إعانهم في حياتهم العقلية أو حياتهم العامة . وكانوا لهذا يسخرون من هذا التفكير الحديث الذي يصدر عن أدباء الشباب . وكانوا يمثلون بهذا الادب في صالوناتهم الادبية وعلى صفحات الكتب الخاصة والجرائد . غير ان الشعر تمثل أسباباً جديدة وأخيلة جديدة ووسائل مستحدثة . كان يقرها شاعرنا حيناً وينكرها أحياناً . فقد كان يقر الشعر الدراسي القوي الذي يصوّر الحياة الواقعة أو هذا الشعر الخيالي العاطفي . كان يقر الشعر الطبيعي . وكان ينكر على « بول ڤاليري » بعض قصائده التي تصدر عن عقله والتي لا أثر لنفسه فيها الا قليلاً . كان صاحبنا ينكر « المادية » التي تطبع الشعر والتي تجعل هذا الفن العالي جسماً من غير روح . كان اذاً يتخذ صور الحياة الطبيعية مقياساً لأدبه ونقده في الحياة . ولقد وفق « خيري » الى نقد هذا الادب الحديث فنشر طائفة من الابحاث النقدية في أمهات الصحف الفرنسية يصوّر فيها الادب كما هو لا كما ارادته هذه الطائفة من أدباء الشباب والادب الشعري بوجه خاص . فكان هذا باعثاً لهُ على التقدير . وكانت هذه المقالات باعثاً أيضاً لطائفة من الكتاب والأدباء على تبيان الادب الرفيع الرائع وما زال النزاع قائماً بين أصحاب القديم وأصحاب الجديد حتى أحدثت الحياة آثارها وانتهى الشباب وأدب الشباب من هذه النزعات التي لم تكن تخلو من اسراف والتي لم تكن تخلو من تهوّر والتي لم يكن لها بد من استقرار وهدوء . على ان شاعرنا لم يكن يغمط حظ بعض كتاب الشباب وشعرائهم من الانتاج القوي الحي الذي انتهى به أدبهم أخيراً . فقد أعجب بهذا الأدب اعجاباً لا حدَّ لهُ ولقد أطرى الشباب كثيراً بل أتيح لهُ أن يقصد الى طوائف كثيرة منهم يحضر اجتماعاتهم وينقل واياهم الى هذه الابحاث العقلية المتعبة . وكانوا يجدون فيه هذا الروح الوثاب الذي عماده البحث والاطلاع والذي سبيله التدقيق والتحقيق

وقد قام الشاعر بجمع « ديوانه » فأكملت نشره بعض المكاتب في باريس . واحدث ظهوره أثراً بعيداً في نفوس الشعراء والفنانين لما تناول شعره كثيراً من الابحاث المصرية الأثرية الخالدة وهو كمصري يستشعر الروح المصرية النبيلة كان مسوقاً بهذا الالهام الابدي الى استجماع الصور والأخيلة التي عبرت بأجلى بيان عن عظمة المصريين والتي صورتهم كأنبل شعب عرف الحضارة الاولى . . . .

والآن اذ أتصور « خيري » الناثر أرى رجلاً آخر يختلف اختلافاً بيناً عن « خيري » الشاعر . فهو في نثره يجنح الى المنطق والحكمة يتزود بهما في استنتاجاته ومقاييسه . لا ترى في

أسلوبه النثري الا هذا الحديث المرتب والا هذا التحليل المقرون بالتفكير والانسجام . قرأت له آخر موضوعاته النثرية عن الشاعر الموسيقار الخالد « ريشارد فاجنر » فتصورته كاتباً غني العقل . خصب القلب . حازم النفس لايخلو تفكيره واستنتاجه من هذه الرشاقة التي تميز بها نفسية الشاعر . وقد يكون « خيري » في نثره مقلاً . لم تكن الابحاث العامة لتظفر منهُ بموضوع من الموضوعات الا في جهد وعسر والا في النحاح وضيق . لانهُ اعتاد إخراج انتاجه بالشعر أو ما يشبه الشعر بل اعتاد ان يتحدث عن هذه الخواطر النفسية التي يعالجها الباحث او الفنان فيسرها الى اصحابه ولا يعنى بتدوينها الا اذا التمس القلم عوناً له على ذلك . والا اذا رغب في إثبات ما يرتاح اليهِ عقلهُ ونفسه . على انهُ كان يتروى البحث ولا يتعجل الحديث . يكثر من التفكير ولا يتحو نحو السرعة بل هو الكاتب المجلي الذي يظفر باعجاب نفسه قبل ان يظفر باعجاب الناس . ولعله كان يكتب لرغبة نفسه قبل ان يكتب شيئاً للناس . والناس ما برحوا يقصدون بالاعجاب لا من يفعل ما يقصد بل من يبلغ غاية الاحسان فيما يحسنه الكثيرون !! ولقد كان يعرض شاعرنا الى شيء من تحليل النفس وتفسير القوى العقلية في طبيعة من يتحدث عنهُ . فيتناول الحديث اطرافاً بعيدة من عمق البحث وقوة الاستنتاج . وكان يرجع ظروف الحياة والمقابلات التي تعرض للانسان والحوادث وتعليلات وجودها الى نشأة الانسان الاجتماعية والى هذه العلاقة المحتمة بين تفكير الشخص ومنهاجه العملي في حياته بوجه عام . وهذا ما كان له ابلغ التأثير في أسلوب « خيري » النثري . ولعلَّ هذا ما يدعو الى قيمة ما كان يذيعهُ خيري من آثار أدبية

***

الفنان

أحب أن ألتمس هذا المعنى العميق الذي يعرض لهُ الشاعر العالمي « شلي » عن الادب لارفعهُ خالصاً الى الفن . فقد قال : « ان الادب تسجيل أقوى ما ينتجهُ العقل في أسعد لحظات النفس »

والواقع اذا كان الادب تسجيل العقل فالفن وحده تسجيل العاطفة والروح . وكل ما في مكنة الفنان نفسه أن ينتج بدعة فنية . حتى لكأنما قد تناولت يد خفية عظيمة كف الفنان فدفعتها بريشتها او مقاشها أو أية أداة أخرى الى ابتكار فذ أو معنى جديد . فلن يكون الفن خالصاً اذا لم يُعنَ بالابتكار والانشاء لا بالتقليد أو الاحتذاء . والفن في طبيعته سرٌّ من أعمق أسرار الحياة بل هو سر في الطبيعة نفسها وان كان ملموساً للرائي في ثناياها . لانهُ فكرة عن الجمال أو الحقيقة . بل فكرة الطبيعة عن نفسها !! فالعالم تحيط به ألوان كثيرة من الجمال ولكن الفنان وحده هو الذي يؤتى البصر الصافي لاكتناه المعاني والصور . وهو صاحب الذوق الرفيع في فصل

الشيء من بين أنواعه المماثلة له . وانتزاع المظهر الواحد من بين مظاهر الجمال المنوعة التي نقف عندها مأخوذين حائرين . وعلى قدر تغلغل نفس الفنان في أعماق الفكرة التي يجتليها يكون مبلغ القدرة من الافتنان وحد الاعجاز . وهذا ما كان يفهمهُ « خيري » من الفن . فقد عاش « خيري » للفن . بل كان الفن عنده فرح الحياة الصادق بل مطلبها الاكبر . بل كان الفن عنده ايماناً يؤمن به . وكان من أصحاب النظرية القائلة « الفن للحياة » وكان شديد الكلفة بتوجيه الفن واطلاقه في الحياة . لانهُ غذاء الشعور والمثل الأعلى للعاطفة الجميلة . لم يصرفهُ شعره عن هذه الحياة الفنية التي كان يحياها بل التي كان يغذي فيها حواسه وعواطفه . بل حبيت اليه هذه الحياة « الموسيقى » . على أنها أبلغ المعاني الصامتة في إثارة المشاعر الانسانية . وطفق « خيري » يدرس الموسيقى درساً مفصلاً ويدرس ألحانها ومنطقاتها وأصولها . ثم أخذ في درس أعلام الموسيقيين والمؤلفين الملحنين . يتتبعهم في مناحي إنتاجهم الى ان ظفر بخلاصة وافرة ومحصول كبير في هذا الفن

فكان ملمّاً بما يقال عن الموسيقى وبما يتحدث به الفنانون عنها . وكان يُكثر من زيارة المسارح الصاخبة بالحياة الموسيقية في باريس بل كان يؤم هذه المهرجانات التي تقام تحية لكبار الموسيقيين حيث تُوقَّعُ فيها اعمالهم الموسيقية . كان (خيري) من هذه الفئة المعروفة لاعلام الفنانين في الموسيقى أشاد به غير واحد منهم بل تحدث عنهُ الموسيقار الكبير « استرافنسكي » في بعض أحاديثه الفنية التي كان يلقيها في صالون (سان بوان) بباريس . قال عنهُ انهُ (الشاعر المصري الذي يعرف حقاً معنى الموسيقى . والذي يفهم الموسيقى على انها اعمق الفنون اتصالاً بالنفس الانسانية) . كان خيري بارعاً البراعة كلها في التوقيع على (البيانو) وقد كان يجتمع الكثيرون من اصدقائه ليستمعوا اليه بل لينصتوا الى هذه الانامل التي تجمع في (بتهوفن) الرفيع ملقياً اليهم بعض « سيمفونياته » الخالدة . كان اذا وصل للتاسعة منها بدأ هذا الجلال الفني ظاهراً متمثلاً روعة التوقيع مرتفعاً بالنفوس الى سماء العبقرية والخلود . ولقد اقبل « خيري » على فن « فاجنر » إقبالاً لا حدّ لهُ . لانهُ أحس في « فاجنر » هذه المذاهب الموسيقية المتعددة التي تتحدث الى العقل والقلب معاً والتي تجعل من الموسيقى فلسفة واقعية تحيط بألوان من العاطفة والتفكير تتحدث عن الحياة والاشخاص وتتحدث الى اصحاب التفكير في قوة التفكير والى اصحاب المنطق في دقة المنطق. بل تتحدث الى هؤلاء جميعاً حديثاً ملؤه الروعة والافتنان . هذا الحديث الذي لم يصل الى مثله شاعر موسيقار « كفاجنر » بل لم يتسنَّ لفنان أن يذهب في الفن الموسيقي هذه المذاهب العقلية المحكمة التي تعلي على العقل الانساني والعاطفة الانسانية جماع التفكير وبواعث الاهتمام والاعجاب

قضى « خيري » سنوات طويلة يدرس فن « ڤاجنر » الموسيقي حتى استطاع ان يجيء عن « ڤاجنر » دراسة مستفيضة ألم فيها بما يجب ان نفهم عن حياة هذا الرجل العظيم . ولن ينسى من ظفر بسماع محاضرته في « معهد الموسيقى الملكي » في مصر منذ عامين كيف عالج « خيري » « ڤاجنر » وكيف تناوله كشاعر من هؤلاء الشعراء الذين لا زمهم البؤس وتنكرت لهم الحياة . وتناوله كفنان من هؤلاء الفنانين الذين سخر منهم صغار العقول وسفهاء الاحلام حتى انه لم يستطع امامهم البقاء يوم ان سقطت « ريبزي » وكان مقدراً لها النجاح . ولكن « ڤاجنر » تقدم الطريق ولم يتعثر . وقدّر له النجاح بعد ان اصطلحت عليه هموم الحياة . واوصلته هذه العبقرية الدفاعة الى عالم الطبيعة بل استطاع بالطبيعة نفسها ان ينفذ الى عالم الفزع فيثير فيها المواهب الروحية التي تفيض بها أوبراته . ولقد احتوت هذه الاوبرات مناظر الاطياف والارواح وتمثلت في شخوصها معاني البلاغة الشعرية العميقة التي تتم احاديثها التمثيلية الرائعة . ولقد اكسبت موهبة « ڤاجنر » الفنية اعماله مسحة الجمال الذي تتمثل فيه عبقريته الشاذة . ولعل ما يقوى على تمثيل هذه العبقرية هذه الموسيقى التي تمشي بانسجام مع الحديث والحركات والمناظر

***

أخذ « خيري » في محاضرته الممتعة عن « ڤاجنر » يتحدث عن هذا واكثر من هذا ! بل اخذ يتحدث عن الموسيقى من حيث هي كما فهمها « ڤاجنر » وافتن « خيري » في هذا الحديث الجامع حتى اخذ على المستمعين شعورهم وظفر منهم بالاعجاب . فاذا اختتم محاضراته تلك بدأت فرقة الموسيقى من برلين اعدتها الحكومة الالمانية بوساطة نشأت باشا وزير مصر المفوض في ان تعزف قطعاً من روائع فنه يحملها الاثير الى مصر والى حيث يجلس المستمعون في المعهد . ولقد سجلت الحكومة الالمانية الى الشاعر « خيري » اعجابها بهذا المجهود الذي صرفه في سبيل عظيم من شعرائها وفنانيها وعدته من بواعث الاعتراف بالثقافة العامة المتبادلة بين الامم

اما عن الموسيقى المصرية فقد كان « خيري » يرثي لها أبلغ الرثاء لانها لا تستند الى معنى من المعاني أو حقيقة من حقائق الفن . هي في رأيه تقليد للغرب في موسيقاه الحديثة بصبغة شرقية . ولقد رأى ان يتحدث في هذا الى أصحاب هذا الفن بل الى وزارة المعارف نفسها . ليحفزهم للبحث عن ايجاد « فن واقعي » للموسيقى المصرية . وكانت له انتقادات فنية خاصة « بالمقام » وغير « المقام » من شؤون هذا البحث . أحب إذن ان تلغى هذه الانغام التي لا تصلح لجونا الاجتماعي أو تقتضيه نزعاتنا الحديثة في تفهم روحنا المصري الاجتماعي . ولقد كانت هذه الثورة الفكرية تزداد في نفسه وتقوى كلما جمعته المجالس بأهل الفن من هواة الموسيقى المثقفين

زخرت حياة « خيري » على وجه عام بهذا المزاج الرقيق الذي شغف بالفن من حيث هو . ولعلَّ خيري كان لهُ رأي خاص بهذه الفنون التي يعالجها بعض المصريين الذاهبين من تصوير ونحت وموسيقى وتمثيل . فقد كان يهتم بأصحابها اهتماماً كبيراً . يصرف من وقته وماله في هذا السبيل ما يعرفهُ الخاصة من اصدقائه . وكان جريئاً في استنهاض اصحاب السلطة في ان تهيء لبعض الفنانين المصريين جواً من الحياة العملية لائقاً بهم . وان تنظر وزارة المعارف لهذه الفنون وللفنانين نظرة ملؤها العون والجهد حتى يأخذ جيلنا المصري الناشيء حاجته من اسباب الثقافة الفنية

ولقد كان آخر خدماته الفنية لاصدقائه من الفنانين أن يحمل بنفسه لوحات ناجي الفنية المصغرة ليطوف بها على الصحف والمجلات لتنشرها. فيرى الجمهور المصري انتاج فنانيه من الهواة ولقد أعجب بفن ناجي اعجاباً لا حدَّ لهُ . متيناً فيهِ الهيام الفن المصري القديم الزاخرة به التماثيل والصور الأثرية في بيئته المصرية الفتانة . على ان اساس هذا الاعجاب ان « خيري » قد ألهمهُ هذا الروح نفسه الخيال المعزول الذي جاد بقصائده الخالدة عن الحياة المصرية القديمة . فاحتوت غير قليل من الابهام الذي تجده في شعره والذي كان نوعاً يتميز بهِ فنه من جمال وسبك ولعل هذا نفسه مادعا الى الاعتراف بعبقريته بل الذي دعا جماعة «فرانس اوربان» الى ان تقيم في باريس حفلاً عظيماً لشاعر شرقي جليل هو « خيري »

***

ولقد كان «خيري» يعاني في سنيهِ الاخيرة عسراً ماديًّا لم يعهده من قبل فكان هذا بعض ما أودى بمزاج الشاعر . فكان لا يخرج للناس الاَّ بعض القصائد القصيرة والاَّ هذه القصيدة التي كان يرضها تحيةً لجلالة الملك في عيد ميلاده

***

ذهب خيري اذن في هذه الحفرة التي احتفرتها لهُ الابدية . ونحن انما نودع روحاً يرف الآن على اصدقائه العديدين بعد ان كان يجتمع بهم ويتحدث اليهم . بل نودع شاعراً مصريًّا اخلص للادب والفن الاخلاص كله وكان من هؤلاء الشعراء الذين غادروا الحياة ولم يشعروا بها وكأن وجودهم خاطر لم يمر على أهل الجيل وان كان بعد آية وبدعة . ولقد شاءت الحياة ان يكون للادب في كل العصور ضحايا وللشعر مكدودون . ولعلي لا اتجاوز الواقع اذا كانت نهاية خيري ابلغ صورة لهذا الوضع في الوجود الفاني